مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 289 - 301 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

المكوّنات التّداولية لنماذج من أسلوب القسم في تراثنا النّحوي العربي

Pragmatic Components For Models of Oath Style In our Arabic Grammar Heritage

د.بومسحة العربي *

Boumesha Larbi

جامعة أحمد بن يحي الونشريسي – تيسمسيلت / الجزائر.

University Ahmed Ben Yahia al-Wancharissi - Tissemsilt - Algeria

larbiaflah0@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/11/08	تاريخ القبول:2021/06/10	تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص البحث

أسلوب القسم ظاهرة لغوية متداولة عند النّاس في كثير من اللّغات، عرفه العرب بحكم ارتباطه بالمعاني الدّينية و استعمالاته اليومية في منظوماتهم الاجتماعية الّتي تستوجب تأكيد وتقوية الأخبار.

يتألّف أسلوب القسم عند نحاتنا من جملتين: الأولى جملة القسم، والأخرى جواب القسم. ويصنّف عند المحدثين ضمن الأعمال اللّغوية القائمة بذاتها، فهو وسيلة للتّعبير عن موقف المتكلّم من قضية معيّنة قصد تأكيدها أو زيادة لتأكيد مضمونها من أجل رفع الشّك والظّن والاحتمال.

إنّ غالبية النّحاة القدماء كانوا في دراساتهم لهذه الظّاهرة قد أشاروا إلى بعض ما تدعو إليه التّداولية نحو: المتكلّم والمتلقي، الاستعمال، الصّدق والكذب، الإقناع والحجاج، القصدية، المقام، المعنى المضمر.

الكلمات المفتاحية : قسم، تداولية، قصدية، معنى مضمر، حجاج، حذف.

Abstract :

Oath Style is a linguistic phenomenon utilized by people in so many languages. The Arabs knew it in correlation to religious meanings and its daily usages in their social systems which require confirming and strengthening the news. Class Style, according to our syntaxists, consists of two sentences; the first is the class sentence, and the other is the class response as it is classified by our classicators among self-dependent linguistic works. It's a way of expressing the speaker's view from a particular situation to confirm it or an addition to. Confirm its content for setting out doubt and probabilities. Many ancient Arab syntaxists used to mark out some of what pragmatics claim for such as: speaker, receiver, conviction and arguing, intention and the state, meaning and implicitly.

* بومسحة العربي. larbiaflah0@gmail.com

Key words: Oath, Pragmatics, Intentionality, Implicitly Meaning, Argumentation, Ellipsis.

1.مقدّمة:

شغل أسلوب القسم حيّزا كبيرا في الدّراسات اللّغوية القديمة و الحديثة لما ينماز به من قوة إنجازية في التّبليغ والحجاج أثناء عملية التّخاطب والتّواصل بين النّاس، وقد يعزى ذلك إلى جانبين: جانب ديني، يتمثّل في قدسية القسم وارتباطه بالمعاني الدّينية المقدّسة؛ حيث يكون الاستدلال به أشد تأثيرا وإقناعا في النّفس والعقل معا.

وآخر اجتماعي، يتجسّد في التّداول والاستعمال اليومي لخطاب القسم داخل منظوماتهم الاجتماعية أو معاملاتهم اليومية في مختلف أنحائها، فبخطاب القسم استغنوا عن الحجج والبراهين لإقناع المتلقي بحقيقة وصور الأخبار.

وبهذا الوصف، يعدّ أسلوب القسم من أساليب التّقوية والإثبات التّي يراد بها تأكيد وتقرير الأخبار لدى المتلقي من أجل إزالة أيّ شكّ يراوده في ذهنه، أو إبانة المعنى المتضمّن بنية حمله على التّصديق، فهو عند العرب من أكثر الأساليب حضورا وشيوعا واستعمالا في خطاباتهم ومعاملاتهم.

من هذا المنطلق، نحاول أن نقارب في محطّات سيّاقية مختلفة نعتقد أنّها استطاعت أن تحقّق المكوّنات التّداولية لأسلوب القسم في تراثنا النّحوي.

إشكالية تنطلق من محاولة قراءة لتراثنا النّحوي من أجل الكشف عن بعض ملامح التّداولية في مجموعة من أساليب القسم، وهي إشكالية مركّبة، تكاد تنفتح على مجموعة أسئلة نراها جوهرية، يمكن حصرها في الآتي:

كيف تعرّف التّداولية؟، وما القصدية من أسلوب القسم؟، وكيف أشار النّحاة العرب القدماء في تخريجاتهم لأسلوب القسم إلى بعض ما تدعو إليه التّداولية من قبيل: الأغراض والمقاصد، المتكلّم والمتلقي، والاستعمال، والصّدق والكذب، والإقناع والحجاج، والقصدية، والمقام، والمعنى المضمر؟.

2.التّداولية:

التّداولية مصطلح جديد يحمل نسقا معرفيا استدلاليا قصديته الوقوف على أغراض المتكلّمين والمخاطبين في إطار موقف كلامي معيّن محدّد بإستراتيجية جاعلة الفعل الكلامي حدثا في الواقع

الاستعمالي للّغة من أجل التّعبير عن طريق التّواصل والاستخدام في سيّاقات مختلفة وخصائص خطابية و مقامية.

التّداولية la pragmatique اتّجاه لغوي ترعرع في رحاب الثقافة اللّغوية الغربية، وهي ترجمة «للمصطلحين، المصطلح الانجليزي pragmatics بمعنى هذا المذهب اللّغوي التّواصلي الجديد الّذي تعرف به هذه المقالة، والمصطلح الفرنسي la pragmatique بنفس المعنى، وليس ترجمة لمصطلح le pragmatisme الفرنسي الّذي يعني الفلسفة النّفعية الذّارئعية»[1].

ارتبط هذا الاتّجاه اللّغوي الجديد بدراسة اللّغة (فونولوجيا وتركيبا ودلالة)،لأنّ اللّسانيات حتّى الجيل الّذي تلا بلومفيلد تهتم بالفوناتيك، والفونولوجيا، وتهتم على استحياء بالقوانين المرفوفونيمية، وتغيّر هذا بالاهتمام بعد ظهور تشومسكي الّذي جعل التّركيب (syntax) مركز البحث اللّساني[2]؛ باعتبار أنّ اللّسانيات تدرس اللّغة كنظام خارج سياق المتكلّم، أمّا التّداولية كعلم جديد للتّواصل، فتهتم بدراسة الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال ضمن مواقف ومقامات معيّنة.

ومادامت اللّغة تمثّل الملكة الّتي يستعملها البشر للتّفاهم فيما بينهم، فهي تعدّ نظاما تواصليا على نحو ما ذهب إليه أندري مارتيني(André Martinet) كونها تصنّف ضمن المؤسّسات الإنسانية النّاشئة في المجتمع قصد بناء عملية الاتّصال بين أفراده، ولذا التّداولية تدرس اللّغة انطلاقا من زوايا متّصلة بجهات الحياة الإنسانية المجسّدة في وصف العلاقات بين اللّغة ومستعمليها[3]

فهي تدرج ضمن حقول الدّراسات اللّسانية «علم جديد للتّواصل يسمح بوصف، وتحليل، وبناء إستراتجيات التّخاطب اليومي بين المتكلّمين في ظروف مختلفة»[4]، لأنّه يدرس كيفية تواصل النّاس عبر إنتاجهم لأفعال كلامية ملموسة تؤطّرها الظّروف والمقامات.

هذا الأمر، يقرّه صلاح فضل في قوله: «لها من ذلك الفرع العلمي المتكوّن من مجموعة العلوم اللّغوية الّتي تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصّة، ووظائف الأقوال اللّغوية وخصائصها خلال إجراءات التّواصل بشكل عام»[5]؛ وبذلك نضمن الممارسة الفعلية للّغة، لأنّها تركّز على الجوانب الوظيفية لها وعلاقاتها بمختلف نشاطات الحياة الإنسانية مع تحليل عمليات الكلام و التّواصل.

و لا مناص من أنّ التّداولية أحدثت تغييّرات، مسّت هندسة اللّغة، وفتحت لها آفاقا، استهدفت حقولا معرفية مختلفة؛ حيث أولت أهمية بالغة للشّروط الخارج لغوية(Extra Linguistique)المتعلّقة بالسيّاق والمقام والمتكلّمين ومقاصدهم في استعمال واستخدام الأفعال اللّغوية[6].

إذاً، التّداولية في جوهرها قائمة على رفض الثّنائية المعروفة في الفكر اللّساني:«اللّغة /الكلام (Langue/parole) الّتي نادى بها رائد اللّسانيات الحديثة (دوسوسير) F.de. Sussure القائلة بأنّ (اللّغة) وحدها دون (الكلام)، هي الجديرة بالدّراسة العلمية. وعلى ذلك فإنّ (التّداولية) تعنى بالبحث في العلاقات القائمة بين اللّغة و متداوليها من النّاطقين بها. فتأخذ على عاتقها تحليل عمليات الكلام ووصف وظائف الأقوال اللّغوية وخصائصها لدى التّواصل اللّغوي»[7].

فهي ردّة فعل على تلك العلاقة الاعتباطية بين الدّال والمدلول: فالدّال علامة لغوية تتخاطب بها الجماعة اللّسانية. أمّا المدلول، فهو معنى لغوي متعارف عليه من لدن هذه الجماعة، والدّال« يحيل على المدلول وفق علاقة عرفية اعتباطية تقوم هذه العلاقة، من خلال اعتباطيتها، بإنتاج المعاني و تداولها وفق قواعد خاصة»[8].

3. المكوّنات التّداولية لنماذج من أسلوب القسم:

أسلوب القسم* الّذي- غالبا- ما يعرّف على أنّه أسلوب من أساليب توكيد الكلام وتثبيته، وإبراز معانيه ومقاصده على النّهج الّذي يبتغيه المتكلِّم.

ويسمى اليمين والحلف، أمّا في الاستعمال والتّداول، فيعدّ ضربا من ضروب الخبر، والقسم أسلوب من أساليب تثبيت الكلام وتقريره، يذكر ليتوكّد به خبر آخر.

ويرد بنمطين هما: ببعض حروف الجرّ نحو: الواو أو الباء أو التّاء. أو بعض الألفاظ الدّالة عليه مثل: يمين، أيمن، ولعمري، وقسمي[9].

يتألّف الأسلوب القسمي من المقسم به، والمقسم عليه. وهو ضرب من ضروب التّوكيد متى تردّد أو أنكر المخاطَب الخبر، وبهذا تتحقّق قدرته الإنجازية ووظيفته في السّياق التّداولي.

هذا المكوّن التّداولي، يظهر بجلاء في قول (سيبويه): « اعلم أنّ القسم توكيد لكلامك. فإذا حلفت على فعل غير منفي لم يقع لزمته اللاّم ولزمت اللاّم النّون الخفيفة أو الثّقيلة في آخر الكلمة. وذلك قولك: والله لأفعلنّ. وزعم الخليل: أنّ النّون تلزم اللاّم كلزوم اللاّم في قولك: إن كان لصالحا، فإن بمنزلة اللاّم، واللاّم بمنزلة النّون في آخر الكلمة»[10].

و أيضا في قول (ابن هشام) في مغني اللّبيب: « الجملة القسمية لا تساق إلاّ تأكيد للجملة المقسم عليها الّتي هي جوابها»[11].

بفضل ما تبيّن من التّعريفين، ليست العبرة بالقسم في شكله وإنّما بما يليه من خطاب، وهو ما يحملنا بلغة التّداوليين على تصنيفه ضمن الأفعال الإنجازية التّأثيرية المراد بها استمالة المتلقي لأنّ جملة القسم تقتضي فائدة مشتركة بين المتكلِّم والمخاطَب في آن معا.

هذه الفائدة المشتركة بين المتخاطبين، نحجرها في القصدية المتأرجحة بين الصّدق والكذب أو بين النّفي والإثبات لهذا الأسلوب القسمي الواردة في قول ابن يعيش :«اعلم أنّ الغرض من القسم توكيد ما يقسم عليه من نفي أو إثبات كقولك والله لا أقومنّ و والله لا أقومنّ؛ إنّما أكّدت خبرك لتزيل الشّك عن المخاطب، وإنّما كان جواب القسم نفيا أو إثباتا، لأنّه خبر والخبر ينقسم قسمين: نفيا وإثباتا، وهما اللّذان يقع عليهما القسم، وأعني بالخبر ما جاز فيه الصّدق والكذب وأصله من القسامة وهي الإيمان»[12].

فبهذا الملمح التّداولي، الّذي يجسّده الفعل الكلامي المتمثّل في الخطاب القسمي (والله لا أقومنّ) المؤسّس وظيفيا على نظام شكلي ودلالي وانجازي وتأثيري، لأنّ اللّغة تتحقّق وتتجسّد في عمليات التّلفظ والخطاب، بحكم وجود علاقة بين هذه العملية وفعل الكلام الّذي يستلزم السّياق المتواضع عليه؛ بحيث لا يمكن أن يكون الفعل الإنجازي ناجحا تامّا منتجا- في رأي أوستين (Austin John Lang Shaw) - دون أن يحدث تأثيرا على المخاطَب...[13]

تأسيسا هذه الضّوابط، يمكن إدراج خطاب القسم في باب الإلتزاميات والوعديات (Commissives)؛ لأنّ غرضها الفعلي الإنجازي ينطلق من التزام الذّات المتكلّمة بفعل أمر في زمن الاستقبال مع توافر كلّ من شرط القصد والمحتوى القضوي مع قدرته على أداء وانجاز ما يلزم نفسه به[14].

وقد يقع الحذف في بنية الخطاب القسمي، ومرد ذلك عند نحاتنا إلى طبيعة أحوال المخاطبين ومقامات كثرة الاستعمال والتّداول، أو أن يكون في الكلام دلالة أو قرينة سيّاقية على المحذوف، إمّا من لفظه أو من سيّاقه، كما عللّه (ابن جني) في قوله: « قد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلاّ عن دليل عليه، وإلاّ كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته. فأمّا الجملة فنحو قولهم في القسم: والله لا فعلت، وتالله لقد فعلت. وأصله: أقسم بالله، فحذف الفعل والفاعل، وبقيت الحال-من الجار والجواب- دليلا على الجملة المحذوفة»[15].

وفي واقع استعمال اللّغة، ألفينا ابن مضاء القرطبي في دعوته إلى الحذف الكثير من كلام العرب بسبب علم المخاطب بها؛ حيث تدرك المحذوفات من سياق الكلام أو مقامه، وحذفها يحقّق الإيجاز والبلاغة والجمال، لأنّ المحذوفات كثيرة جدا في كتاب الله تعالى لعلم ومعرفة المخاطبين بها[16].

أمّا من جهة مبدأ التّعاون والتّشارك، فيُظهر مدى انسجام قصدية المتكلّم مع تفسير المتلقي في مقاربة المعنى المضمر الّذي ينتج عن إستراتجية الحذف، وبها يعدّ الحذف آلية لإظهار بعض المكوّنات التّداولية المضمرة من قبيل القصدية (Iintentionnalité)، ومتضمّنات القول أو مضمراته (Les Implicites)، على نحو ما ذهب إليه طه عبد الرحمن في قوله:«الغالب على المستدل أن لا يذكر في دليله إلاّ ما كان يعلم أنّ المستمع يحتاج إلى معرفته لتبيّن المدلول منه، معتمدا في ذلك على قدرة المستمع على استحضار المحذوف، إمّا لوضوحه أو لقربه أو لشهرته، فتكون عناية المتكلّم بالدّليل على حسب حال المستمع من الإدراك، وعلى قدر مشاركته له»[17].

ومثال ذلك ما ورد في حذف المقسم به في قول شاعر:

فَأُقْسِمُ أنْ لَوِ التَقَينَا وأَنْتُمُ لَكَانَ لَكُمْ يَومٌ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمُ

وأيضا في قول آخر:

وَأُقْسِمُ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رَسُولُه سِواكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا

وذلك بذكر معونة لفظية نحو: فعل القسم الّذي يدل عليه، لأنّ العرب تقول: أقسم لأفعلنّ وأشهد أفعلن والمعنى أقسم بالله أو بالّذي شاء وإنّما حذف لكثرة الاستعمال وعلم المخاطب بالمراد[18].

في هذا السّياق، لقد قرّر النّحاة في نصّية المخصوص بالقسم من حيث الابتداء والخبرية، تلزم وجوب حذف الطّرف الثّاني من الجملة القسمية نحو قولنا: في ذمتي لأفعلنّ أو في رقبتي لأفعلنّ. أمّا إذا لم يكن المخصوص بالقسم، فقد تذكر الجملة الاسمية كاملة مثل: على عهد الله لأفعلنّ فيقال: عهد الله لأفعلنّ[19].

فبهذا التّعليل، ندرك بأنّ نحاتنا القدامى كانت لهم نظرة وظيفيّة في بناء القاعدة النّحوية، لأنّ طول الكلام يبعث على الملل والرّتابة ويثقل التّراكيب، وما تخميناتهم في مثل هذه الإجراءات طلبا لتزيين الكلام وتخفيفه إلاّ أدلّة على تفطنهم لمثل هذه الاستراتيجيات الحذفية لأسلوب القسم.

وفي موضع آخر، أجاز النّحاة حذف أداة القسم(حروف الجرّ أو الإضافة) من باب الاقتضاء، لأنّ حذفها في اللّغة يكون عادة للاختزال والاقتصاد والاتّساع، وفق ضرورة أمن اللّبس وعدم إفساد المعنى.

وفي هذه الحالة، قد أشار سيبويه إلى ملمح تداولي آخر وسمناه بالاقتضاء؛ حيث لا يكون الاسم مجرورا إلاّ بمقتضى الإضافة أو الخفض، وهي المقتضيّة للجرّ في قوله: «واعلم أنّك إذا حذفت من المحلوف به حرف الجرّ نصبته، كما تنصب حقًّا إذا قلت: إنّك ذاهب حقًّا. فالمحلوف به مؤكّد به الحديث كما

تؤكّده بالحقّ، ويجرّ بحروف الإضافة كما يجرّ حق إذا قلت: إنّك ذاهب بحقّ، وذلك قولك :اللهَ لأفعلنّ»[20].

وعليه، يتأسّس فعل الاقتضاء بعلاقة تركيبية مشتركة بين المتخاطبين وصولا إلى المعنى المكتمل جرّاء النّص المتلفّظ به، وهو« المعنى القائم بالنّص المنطوق، وهو الّذي يظهر الضّرورة لوجود التّقدير، ذلك أنّ هذا المعنى لا يكتمل مفهومه، ولا يتّضح معناه صدقا للكلام وصحّة إلاّ بوجود المقدّر»[21].

وإنّ المعنى لا يستقيم في حالة الاقتضاء إلاّ إذا أدرك المتلقي الكلام المحذوف التّي تدل عليه الطّبقات المقامية والأعراف والمحيط وصدق نوايا منتج الخطاب القسمي لأنّها تشكّل مبادئ وأصول التّواصل بشكل عام.

وبناء على هذه المكوّنات التّداولية، يخضع الحذف– الّذي يمثّل أهم خصائص اللّغة العربية– في عرف النّحو العربي إلى قرينة سياقية مناسبة تساعد المتلقي على فهم فحوى الخطاب في مجال فهم المعاني وتفسيرها بكلّ مرونة ويسر؛ حيث«يشمل توسيع الخطاب ليصبح أكثر مناسبة للمقام التّخاطبي ويعتقد أنّ المخاطب في تعامله مع اقتضاء النّص يفترض أنّ المتكلّم قد حذف بعض أجزاء الكلام اعتماد على قدرة المتكلّم على إدراكها بمعونة القرينة»[22].

حيث فرضت كثرة الحذف في الخطاب القسمي عند العرب إلى التّداول والاستعمال قصد التّخفيف لطول الكلام بالجواب بحكم أنّ أسلوب القسم يتكون من جملتين: الأولى، جملة القسم. والأخيرة، جواب القسم.و مبرّرات ذلك، ما وجدناه في قول ابن يعيش « وإذا ثبت أَنَّه أكثر في الكلام، كان أكثر استعمالا، وإذا كثر استعماله، خفَّ على الألسنة لكثرة تداوله، ألا ترى أنّ العجمي إذا تعاطى كلام العرب ثقل على لسانه لقلّة استعماله له»[23].

فبتنوع وكثرة الاستعمال والتّداول، تتأسّس العملية التّواصلية مشكّلة بذلك موقفا كلاميا في إطاره السّياقي الوظائفي؛ لأنّ القسم عمل من الأعمال اللّغوية القائمة بذاتها، والّذي يدل دلالة واضحة على أنّه وسيلة وظيفية للتّعبير عن موقف الذّات المتكلّمة من قضية معيّنة قصد تأكيدها أو زيادة لتأكيد مضمونها على نحو ما ورد في قول محمد الشّاوش: « إنّ زيدا منطلق، والله إنّ زيدا لمنطلق. فالمتكلّم في المثال الأول، أخبر مؤكّدا ما أخبر به وهو في كلامه إمّا كاذب وإمّا صادق. أمّا في المثال الثّاني فإنّ قائله أخبر وهو في كلامه إمّا كاذب وإمّا صادق، لكنّه أقسم وهو بقسمه بار أو حانث، وهذه هي الّتي ترجح اعتبار القسم عملا لغويا ومعنى مختلفا عن سائر المعاني المتحقّقة بطرق التّأكيد»[24].

ومثلما أسلفنا القول، نظرا لقدسية القسم وارتباطه بالمعاني الدّينية يكون الاستدلال به أشد وقعا في النّفس، لأنّ قوة القسم أبلغ من قوة التّوكيد من حيث تقرير الأخبار وحمل المخاطَب على التّصديق، وإنّ الفعل الكلامي التّأكيدي في القولين الآتيين:- بالله لتفعلن كذا - والله إنّي لصادق.الخطاب الأول، يتضمن طلبا فيه الإنجاز أو غير الإنجاز، والثّاني إخبار ووصف[25]، لأنّ صيغة الأوّل إنشائية أمرية تحتمل سياقيا التّحقق أو غير التّحقق في حين الثّانية خبرية تتوزّع بين الصّدق و غير الصّدق .

من هذه الجهة، اختلف نحاتنا العرب في دراسة القسم بوصفه أسلوبا من الأساليب، أو بوصفه معنى من المعاني، على الرّغم من اختلافاتهم في خبريته وإنشائيته[26].

بواسطة هذا الاختلاف، نلمس ملمحا تداوليا للفعل الكلامي الوارد في قول (سيبويه) عند حديثه عن القسم، الّذي يعدّه تأكيدا للكلام ضمن إستراتيجية الحجاج؛ حيث لا يراد لذاته ،وإنّما يراد لغرض معيّن وقصدية خاصّة تفهم من سياق الموقف الكلامي، كالتّحضيض في الطّلب أو تقوية الخبر[27].

والضّابط التّداولي بينهما، يحيلنا إلى إدراج الأوّل بلغة سيرل (John Rogers Searle) ضمن الأمريات (Directives)، بينما الأخير ضمن الإخباريات (التّقريريات Assertives)، والكفاءة التّداولية لخطاب القسم تتجلّى في خلق شحنة صدق تغلّف الملفوظ اللّساني لما لهذا الأسلوب من منزلة في حياة النّاس.

وبهذا التّلفظ القسمي، نؤكّد شرعية ما نتلفّظ به ونبيّن صدق ما ندعو إليه، لأنّ القسم بؤرة إنجازية حاملة لشرط الصّدق بين المتكلّم والمتلقي والخطاب في آن معا، وعرفية استعماله تحتّم على المتلقي قبول كلّ ما يتفوّه به المتكلّم لما له من حضور ديني في الذّات الإنسانية؛ حيث نستند إليه بقصدية إبراز المعاني والمقاصد على النّحو الّذي يريده المتكلّم، إذ يؤتى به في مقام الجحود والإنكار، أو إزالة الظّنون و المزاعم.

كلّ هذا، مرتبط بالظّروف العامّة للسّياق الّذي يفرض على المتكلّم اجتباء اللّغة القسمية الفاعلة والفعلية ذات الحمولة الإنجازية المناسبة من حيث الاستعمال والتّوظيف لمثل هذه الأسيقة الملزمة إلى تأكيد المعاني بوساطة هذا الأسلوب الّذي نوظّف فيه أغلى ما عندنا، إذ ذاك يشعر المخاطَب بقبول الخطاب بصورة عامّة لبناء قاعدة تأسيسية تُمكّننا من كسب ثقته وحمله على التّصديق.

جريا على _ عادة العرب _ نلجأ إلى القسم في تمتين وتوكيد وتقوية الأخبار قصد تمكينها من الغير لإنجاح الخطاب القسمي المتمثّل في حمل المخاطَب على التّصديق، وبعث المتلقي على التّفكير الجاد

والقوي فيما ورد القسم من أجله، لأنّ قوته الإنجازية تكمن في كونه من المؤكّدات المشهورة الّتي تمكّن الشّيء في النّفس.

وهذا ما أكّده سامي عطا حسن في كون القسم ضرب من البيان ألفه العرب، ليوثّقوا به أنباءهم وأخبارهم، وتبيّن أنّه كثيرا ما يسوق من أجل البرهان والاستدلال على صدق المقال، فهو إذن نوع من الدّليل الواقعي المحسوس، الّذي يستميل المشاعر والعواطف، ويثير الانتباه والتّفكير[28].

و من آليات الحجاج النّحوي لأسلوب لقسم الّتي يستخدمها كلّ مخاطب في الوقت الّذي يراه مناسبا للموقف الكلامي لتحقيق أغراض تواصلية نحو: الشّرح والتّفسير والتّعليل والاستقراء والاستدلال والإقناع. على نحو ما ذهب إليه (سيبويه) في قوله: « واعلم أنّك إذا أخبرت عن غيرك أنّه أكّد على نفسه أو على غيره فالفعل يجري مجراه حيث حلفت أنت؛ وذلك قولك: أقسم ليفعلنّ، واستحلفه ليفعلنّ، وحلف ليفعلنّ ذلك، أخذ عليه لا يفعل ذلك أبدا. وذاك أنّه أعطاه من نفسه في هذا الموضع مثل ما أعطيت أنت من نفسك حين حلفت، كأنّك قلت حين قلت أقسم ليفعلنّ قال والله ليفعلنّ، وحين قلت استحلفه ليفعلنّ قال له والله ليفعلنّ»[29].

في هذا المعطى النّصي، تبيّن لنا اعتماد اللّغة الخطابية باستحضار المتكلّمين لتحقيق أغراض تواصلية معيّنة مؤسّسة على إستراتيجية الحوار، وفيها التّمثيل الّذي ليس له قيمة وصفيّة بقدر ما له من قيمة حجاجيّة؛ حيث عمد (سيبويه) إلى ضمان التّفاعل واستمراريّة التّخاطب والتّواصل بينه وبين مخاطبه على نية الافتراض في بيان موضع ودلالة القسم.

وما انزياح التّمثيل إلى المستوى الحواري باستنطاق المخاطب المفترض إلاّ لقصدية الاهتداء والاسترشاد بتقنيات الاستحضار والشّرح والتّفسير والاستقراء وفق سبل استدلاليّة متنوّعة مفضية إلى الاقتناع برأي المحاور؛ ليكون ذلك أساسا لبناء قواعد أصول الحوار والتّخاطب في آن معا.

وحتّى ينسجم الخطاب القسمي، يستلزم حواريا معرفة حدود إدراك الذّات المتلقية لهذا الخطاب من قبل المتكلّم؛ فخالي الذّهن يخاطب بلغة عادية دون توظيف أدوات القسم، والذّات المتردّدة تحتاج إلى إثبات لتعديل أو تصحيح الخبر، والذّات المنكرة تفرض أدوات حجاجية أكثر وأقوى للإقناع.

4.خاتمة:

في ختام هذا المقال، الّذي حاولنا فيه تقديم مقاربة تداولية سيّاقية لأسلوب القسم عند نحاتنا العرب القدامى؛ حيث تتّبعنا فيه المكوّنات التّداولية لنماذج من هذه الظّاهرة اللّغوية قصد الكشف عن بعض ملامحها.

وفيه خلصنا إلى الآتي:

– أسلوب القسم ظاهرة لغوية عرفها العرب كغيرهم من الأمم؛ حيث جرت العادة على توظيفه إذا ما قصد به توكيد الأخبار وتقريرها في تواصلاتهم اليومية للمقسم عليه، فيه تنبيه للمتلقي، وتمهيد له بما يقرّره المتكلّم في الذّهن.

– لم يوظّف أسلوب القسم عند نحاة العرب من باب الحشو وإثقال المعنى، بل يؤتى به للاستدلال والإقناع وإقامة الحجّة وقوة البيان، لأنّ من مقاصده تقوية وتأكيد الأخبار في مقام الجحود والإنكار، أو إزالة الظّنون و المزاعم.

– الخطاب القسمي إشادة وتنويه وتوكيد لما يتضمنه جواب القسم؛ إذ تظهر تأثيريته على حال المخاطَب المتناسبة طردا مع الجواب؛ فكلّما زاد الجحود والإنكار، ازداد معه التّوكيد في صياغة الخبر على اعتبار القسم يمثّل لنا الدّرجة العليا في التّقوية والقوة.

– لقد فسّر النّحاة العرب القدامى ظاهرة الحذف في الخطاب القسمي انطلاقا من مقتضى الحال، والظّروف المقامية والعناصر السيّاقية لاستعمالات القسم، وثقافة المتلقي الّتي تستوعب هذه البنية النّحوية المحذوفة. بهذه التّخمينات والتّخريجات تعكس قدرتهم الفائقة في تفسير ظاهرة الحذف الّتي تكاد تقترب وتساير إلى حدّ كبير مخرجات الدّرس التّداولي في مسائل: الاقتضاء، والمعنى الضّمني والمضمرات، والمعنى الخطابي، والحجاج.

– يعزى حذف أحد عناصر أسلوب القسم إلى مواضعة السيّاق التّداولي القائمة على الاستعمال الفعلي لهذا الخطاب، والّذي بدوره يشكّل موقفا تواصليا بين المتكلّم والمتلقي فرض كثرة الاستعمال بينهما لعلم المخاطب بالمحذوف.

– كثرة الاستعمال السيّاقي لخطاب القسم ودورانه على الألسنة، جعله معلوما عند المتلقي ممّا دفع المتكلّم إلى الحذف و الإيجاز في الكلام.

هوامش:

1- مسعود صحراوي: التّداولية عند العلماء العرب، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، أوت 2005، ص 15.

2- ينظر: صلاح الدّين صالح حسنين: الدّلالة والنّحو، مكتبة الآداب، ط1، (د.ت)، ص 187. و فيليب بلانشيه: التّداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاّذقية، سورية، ط1، 2007، ص19.

[3]- Martinet (André) : Eléments de linguistique générale, Armand Colin : Paris, 1980, p 9. "Les institutions humaines résultent de la vie en société; c'est bien le cas du langage qui se conçoit essentiellement comme un instrument de communication. Les institutions humaines supposent l'exercice des facultés les plus diverses"

[4]- آن روبول، و جاك موشلار: التّداولية اليوم، ترجمة: سيف الدّين دغفوس، و محمد الشيباني، بيروت، دار الطّليعة، ط1، 2003، ص55. وينظر: فان دايك: النّص والسّياق استقصاء البحث في الخطاب الدّلالي والتّداولي، ترجمة: قنيني عبد القادر، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، 2000، ص13.

[5]- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النّص، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس، 1992، ص 20.

[6]-ينظر: مقبول إدريس: البعد التّداولي عند سيبويه، عالم الفكر، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، مجلّد33، عدد 01، 2004، ص.ص 245،246.

[7]- فرناند هالين: التّداولية، تر: زياد عز الدّين العوف، "مجلّة الآداب الأجنبية"، مجلّة فصلية تصدر عن اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق، ع 125، شتاء 2006، ص1.

[8]- سعيد بنكراد: السّيميائيات وموضوعها، "علامات"، مجلّة ثقافية محكّمة تصدر في المغرب تعنى بالسّميائيات والدّراسات الأدبية الحديثة والتّرجمة، ع 16_ 2004، ص 84.

*- لقد اشتملت مادة (ق،س،م) على الكثير من المعاني في المعاجم العربية، فمنها ما ورد في اللّسان: القسم بالتّحريك يرادف الحلف واليمين، يقال: قسم فلان أمره إذا ميل فيه أن يفعله أو لا يفعله. أبو سعيد: يقال تركت فلانا يقتسم، أي: يفكّر ويروي بين أمرين، وفي موضع آخر: تركت فلانا يستقسم بمعناه. ويقال: فلان جيد القسم، أي: جيد الرّأي. ورجل مقسم: مشترك الخواطر بالهموم. والقسم بالتّحريك: اليمين، وكذلك المقسم، وهو المصدر مثل المخرج، والجمع أقسام. وقد أقسم بالله واستقسمه به وقاسمه: حلف له. وتقاسم القوم: تحالفوا. وفي التّنزيل: قالوا تقاسموا بالله. وأقسمت: حلفت وأصله من القسامة. ينظر: ابن منظور(أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، (د.ت)، مج 12، ص 480.

ومنها ما ورد في المقاييس: " قسم " القاف والسّين والميم أصلانِ صحيحان، يدلُّ أحدهما على جمال وحُسن، والآخَر على تجزئة شيء. فالأوّل القَسَام ، وهو الحُسْن والجمال. وفلانٌ مُقَسَّم الوجه، أي ذو جمالٍ. والقَسِيمة: الوجه، وهو أحسن ما في الإنسان. والأصل الآخر القَسْم: مصدر قَسَمت الشّيءَ قَسْماً. والنَّصيب قِسمٌ بكسر القاف. فأمَّا اليمين فالقَسَم. قال

أهلُ اللّغة: أصل ذلك من القَسَامة، وهي الأيمان تُقْسَم على أولياء المقتول إذا ادَّعَوْا دم مقتولهم على ناسٍ اتَّهموهم به. ينظر: ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريّا): مقاييس اللّغة، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، بيروت، ج5، ص 86.

[9]- ينظر: محمد سمير نجيب اللّبدي: معجم المصطلحات النّحوية والصّرفية، مطبعة أمزيان، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص187.

[10]– سيبويه(أبو بشر عمرو بن قنبر): الكتاب، تحيق وشرح: عبد السّلام هارون، بيروت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3،1988، ج3، ص 104.

[11]– ابن هشام (جمال الدّين الأنصاري): مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك، ومحمّد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط5 ، 1979 ،ج1، ص188.

12- ابن علي بن يعيش موفّق الدّين، شرح المفصّل، إدارة الطّباعة المنيرية، مصر، (د.ط)، (د.ت)،ج9، ص90.

[13] -Austin (John Lang Shaw) : Quand dire c'est faire, traduction française de:gilles lane, postface de: François récanati, éditions du seuil, Paris, 1970, p 124.
" un acte illocutoire n'aura pas été effectué avec bon heur, ou avec succès, si un certain effet n'a pas été produit ".

[14]– ينظر:محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط1، 2002، ص79. وطالب سيد هاشم الطبطبائي: نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللّغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، 1994، ص31.

[15]– ابن جني(أبو الفتح عثمان): الخصائص، تحقيق: محمد علي النّجار، المكتبة العلمية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ج2، ص360.

[16]– ينظر: ابن مضاء(أحمد عبد الرّحمن اللّخمي): الرّد على النّحاة، نشره وحقّقه: شوقي ضيف، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1947 ، ص.ص 88،89.

[17]- طه عبد الرحمن: اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص150.

[18]- ينظر: ابن يعيش موّفق الدّين، شرح المفصّل، (م.س)، ج9، ص94.

[19]- ينظر: محمد حماسة عبد اللّطيف: بناء الجملة العربية، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2003، ص 230.

[20]- سيبويه: الكتاب، (م.س)، ج3، ص 497.

[21]– العمري نادية محمد الشّريف: دلالة الاقتضاء وأثرها في الأحكام الفقهية(دراسة في علم أصول الفقه)، هجر للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 1988، ص224.

[22]– محمد محمد يونس علي: علم التّخاطب الإسلامي(دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النّص)، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص.ص 217،218.

[23]– ابن يعيش موفّق الدّين، شرح المفصّل، (م.س)، ج1، ص57.

[24]– محمد الشّاوش: أصول تحليل الخطاب في النّظرية النّحوية العربية(تأسيس نحو النّص)، المؤسّسة العربية للتّوزيع، تونس، ط1 ، 2001، ص 751.

[25]– ينظر: مسعود صحراوي: التّداولية عند العلماء العرب، (م.س)، ص 209.

[26]- ينظر: عبد السّلام هارون: الأساليب الإنشائية في النّحو العربي، مكتبه الخانكى، ط 5، 2001 ، ص.ص 162، 166.

[27]- ينظر: مسعود صحراوي: التّداولية عند العلماء العرب، (م.س)، ص 207.

[28]- ينظر: سامي عطا حسن: أسلوب القسم في القرآن الكريم ودلالته...وأغراضه، مدونة البلاغة العربية، جامعة آل البيت، المفرق، المملكة الأردنية الهاشمية، ص03.

[29]- سيبويه: الكتاب،(م.س)، ج3، ص 106.